

العالم ومصيره، وأنه مسير بقوة عظيمة هي قوة خالقه، وأنه سيحاسب الإنسان في الآخرة على ما قدمت يداه في دنياه وهذه الصورة مركزة في ذهن الشرقي، وموروثة له أباً عن جد، فهو في أشد أوقات النعيم في الدنيا يشعر بحافز يحفزه إلى أن يسأل ما عاقبة هذه اللذة بعد الموت؟ وهل أثناب عليها أو أعاقب؟ وماذا سيكون موقفى أمام الله إذا سألتنى عنها؟ وهكذا وهو يبنى أخلاقه على أساس الدين، ويبنى أعماله على أساس القلب، ولهذه الطبيعة الشرقية والاستعداد الفطرى الخاص كان الشرق منبع النبوات والفلسفة الإشراقية ومذاهب المتصوفة، وإطالة التأمل، ونحو ذلك من مظاهر الحياة الروحية، فإن ظهرت نفحات من ذلك في الغرب فمصدرها غالباً الشرق، واليهودية والنصرانية والاسلام والتصوف في الغرب ليس إلا موجة من موجات الشرق.

يكاد يكون لشرقيين عنصر خاص ينقص غيرهم، وهو الإحساس الدينى العميق الذي يلزمهم حتى في أوقات خروجهم عن الدين، ولذلك كثيراً ما يعقب المعصية تنبه الضمير الدينى، والمبالغة في التوبة والندم، إنهم يؤمنون في كل حركاتهم وسكناتهم وتصرفاتهم بإله يسيرهم وقدر يتحكم فيهم.

قد يأتى على الشرق زمن تفسد فيه عقيدته ويسوء تصرفه، وتنحط مشاعره، فتصدر عنه أعمال خسيصة لا تصدر عنه الغرب المادى، ولكن هل يصح أن نعدّ هذا العارض إفساداً للذاتية وفقداناً للخاصية، أو نعدّه حاسة أصيبت بآفة مع الرجاء في شفاؤها، أو جسماً أصابه المرض وفيه حصانة تبشر بالشفاء، لو حكمنا بالظاهر لقلنا إن مادية سليمة تخضع للعقل وتنجح في الحياة، وتسيطر على العالم خير من روحانية فسدت، ومبادئ قومية تعفنت، ولكن ليس هذا إنصافاً في الحكم، فما نتيجة هذه المادية الناجحة؟ إنها مدنية روّعت العالم، وجعلته على بركان يوشك أن ينفجر، وهو كل يوم في اختراع جديد يهدد العالم بالفناء، فما قيمة القوة إذا كانت محطّمة، وما قيمة القصر المزوّق إذا ساد سكانه الفزع، ولو أنك سألت أسرة أوروبية هل تفضل أن تعيش عيشة بدخ وترق وتفقّد أبناءها في الحروب، أو تعيش عيشة وسطاً ولا يهلك أحد منها في حرب، فما الذي كانت